الحضارة الإسلامية
بين
التحدي والاستجابة

للأستاذ مصطفى محمد طه

مدخل عام في هذا البحث - المتواضع - عن الحضارة الإسلامية بين التحدي والاستجابة سأحاول محاولة علمية جادة بلورة قضية بحثية - حسب المنهج الأكاديمي البحث - أراها على جانب كبير من الأهمية ألا وهي قضية دراسة الحضارة الإسلامية في ضوء نظرية علمية وهي التحدي والاستجابة. وهذه النظرية دقيقة كمحاولة علمية لتفسير كنه حركة التاريخ الحثيثة الإيقاع في سرعتها وديمومتها نحو الأفضل.

وأهمية هذه القضية ترجع - حسب وجهة نظري الخاصة - إلى سببين حيويين:

أولهما :مكانة صاحب النظرية «أرنولد توينبي» على مستوى البحث والدرس التاريخي والتحليل المنهجي لقضايا التاريخ عالميا.

ثانيهما. هو ذلك الحيز الحيوي الذي احتلته الحضارة الإسلامية وقضاياها في دراسات «أرنولد توينبي» ذلك المؤرخ العالمي الفذ وطروحاته بخصوص وضعية هذه الحضارة بين الحضارات الأخرى التي اختارها «توينبي» كنماذج بحثية ـ لمعرفة الهيكلية العامة لمسيرة الإنسان الحضارية على ظهر هذا الكوكب الأرضي وذلك من خلال دراساته الواعية للحضارات البشرية التي درس عبر نشوئها وارتقائها وأخيراً سقوطها الملامح العامة والخاصة لتاريخ الإنسانية قاطبة عبر رحلته المديدة.

إن نظرية «التحدي والاستجابة» ـ والتي قال بها المؤرخ «أرنولد توينبي» تعد إحدى النظريات الفريدة التي درس على ضوئها العلماء ـ أي علماء التاريخ والحضارة والباحثون عن الإبداع الحضاري البشري في جميع مناحيه ومناشطه المتنوعة.

ومن هنا وجب علينا نحن المسلمين ضرورة دراسة إبداعنا الحضاري الإسلامي في واقعه التاريخي ووضعيته الراهنة وكذلك محاولة استشراف ملامح مستقبله المنشود له ـ على ضوء هذه النظرية دراسة واعية حسب رؤية علمية منهجية.

وفي بحثي المتواضع هذا سوف أقوم بدراسة عدة محاور حتى يكون هناك بناء معرفي وتصور منهجي لبنائية هذا البحث حسب قناعتي المعرفية.

و تلك المحاور هي:

المحور الأول: سيعالج هذا المحور ماهية النظرية وطبيعتها وأبعادها وآفاقها ومكانتها بين نظريات تفسير حركة التاريخ وقيام الحضارات وانهيارها، وذلك من منطلق أن الحضارات ما هي ـ في طبيعة الحال ـ إلا إفرازات بشرية بحتة سواء في بعدها المعنوي بعد استلهام عطاء السماء أو بعدها المادي كنتاج لعبقرية الشعب المبدع لها.

المحور الثاني: سيعالج هذا المحور تطبيق النظرية في المجالات الحضارية واقعيا وذلك من خلال سبر أغوار التاريخ البشري ومحاولة دراسة أبعاد الحضارات التي استعان بدراسة آفاقها «أرنولد توينبي» لكي يطبق مدى صحة نظريته عليها. وذلك من واقع لمساتها الحية الباقية كدلالة ناصعة على وضعها المميز في مجرى التاريخ البشري.

المحور الثالث: سيتناول هذا المحور دراسة حضارتنا الإسلامية - تلك الإنطلاقة الحضارية الربانية في ثوابتها والبشرية في متغيراتها - كوثبة تاريخية، جاءت على مدة من التاريخ الحضاري للبشرية ولا تزال تترك بصماتها. وترفد المد الإنساني النزاع دوما نحو الارتقاء الحضاري على ضوء تلك النظرية وسأعالج في هذا المحور مواطن القوة والحيوية والتدفق في حضارتنا، وذلك على ضوء التحديات التي قدر لها أن تواجهها.

وأيضاً - سأعالج قضايا الانتكاس والضمور والتراجع والتقوقع الحضاري في تاريخنا وحضارتنا على ضوء هذه النظرية أيضا، حتى تكتمل لنا أبعاد وجودنا الحضاري تاريخيًا في إنطلاقاته وتراجعه حتى نستفيد في مستقبل أيامنا من هذا الدرس التاريخي وتعمل أمتنا جاهدة على تجنب العثرات التي أدت بها إلى انتهاج هذا الطريق المسدود والذي تسير فيه الآن. ويجب عليها أن ترتقي حضاريًا حتى يتسنى لها أن تفتح ثغرة بل عدة ثغرات في هذا الطريق المسدود المشار إليه آنفا.

المحور الرابع: وفي هذا المحور سأعالج الرتوش الأخيرة لبناء هذا البحث فكريا ومنهجيًا وستكون هذه المعالجة بمثابة نهاية المطاف مع دراسة ابداع حضارتنا على ضوء نظرية لها مكانة بارزة أيما بروز في حقل الدراسات التاريخية والحضارية. وسوف تتجسد خطتي البحثية في كتابة هذا البحث والذي أعتبره كله من البدء حتى المنتهى عبارة عن خلفية بسيطة لهذا الموضوع الرحب من خلال تلك المعايشة الحية للمراجع والدراسات العلمية التي تناولت أبعاد هذا البحث.

وسيكون دوري هو القيام بعملية ايجاد ترابط فكري بين النصوص حتى تتحقق

وحدة عضوية علمية بينها. وبين التدخل أحاول إلا عندما تقتضي الضرورة العلمية ذلك، أما فيما عدا هذا فالنصوص مستقاة من مراجعها الأصلية والتي أشرت إليها حسب طبيعة البحث العلمي الأكاديمي.

وفي سبيلنا حول المحاور السابقة نقول: إلى تكوين البحث الفكري والمعرفي والمنهجي التحليلي.

المحور الأول: ماهية النظرية: تعد نظرية «أرنولد توينبي» (١٨٨٩ - ١٩٧٥م). من أهم نظريات فلسفة التاريخ، فهو مؤرخ معاصر عاش وشاهد مشكلاتنا العالمية. الأمر الذي يجعل آراءه أكثر حيوية وأهمية من فلاسفة أو مؤرخين عاشوا في أزمنة خلت. كذلك كان يحرص توينبي على أن يكون مؤرخاً أكثر منه فيلسوفاً وهو ليس مؤرخاً عادياً. بل لقد عكف على دراسة حضارات العالم بأسرة قديمه وحديثه طوال نصف قرن تقريباً في عمق وخصوبة وموضوعية.

ومن ثم فإن ما يوجه إلى فلاسفة التاريخ من انتقاد أنهم يقيمون أبراجاً ضخمة من مادة محدودة لا ينطبق عليه وليست دراسته قائمة على الاطلاع فحسب وإنما حرص على أن يكون أكثر قرباً من موضوع دراسته بأسفاره ورحلاته وهو من حيث دسامة المادة التاريخية لا يكاد يناظره مؤرخ آخر(١).

ولقد كان الباعث الكامن وراء انبثاق هذه النظرية إلى دنيا الواقع البحثي هو قراءة «أرنولد توينبي» للكتاب المقدس (العهد القديم) التوراة كما يرى ذلك الأستاذ فؤاد محمد شبل.

وبعد معرفة الملامح العامة لمكانة واضع النظرية بين فلاسفة التاريخ ومعرفة الأسباب الدافعة لوضعها. أرى لزاماً علينا معالجة كنه النظرية نفسها وسنرى أن نظرية التحدي والاستجابة تتجسد لنا في أن خلاصة هذه النظرية، من حيث استخدامها في التفسير التاريخي، هو أن الباحث عندما يبحث في التاريخ مجتمعاً من المجتمعات أو حضارة من الحضارات، عليه أن يبحث في نقاط التحدي التي واجهت هذا المجتمع وكيفية الاستجابة لهذا التحدي؛ وذلك لأن العلاقة بين

التحدي والاستجابة تفسر تطور المجتمع من حالة إلى أخرى(٢).

ومن هنا نرى أن «توينبي» يجعل العامل الإيجابي في نشأة الحضارات ينحصر في عنصري التحدي والاستجابة ـ الذي جعل منه نظرية في تفسير التاريخ أطلق عليها نظرية التفسير الحضاري ـ فالظروف الصعبة التي يعيش فيها مجتمع من المجتمعات هي الحافز الأول إلى خلق الحضارة، أو بعبار أخرى إن أي مجتمع يتعرض لمصائب (استعمار ـ غزوات) ويستجيب لهذه المصائب بالتحدي يكون قد وضع أول خطوة له في بناء سيادته ـ ويكون انهيار الحضارة بسبب قصور المجتمع المتحضر عن مواصلة عملية التحدي والاستجابة لما أنغمس فيه من خمول وترف أو لما قد يصل إليه المجتمع من (مركب العظمة)(٣).

ولكي تتضح لنا الأبعاد الحقيقية لهذه النظرية الفذة في تفسير التاريخ ونشوء وسقوط الحضارات، لابد لنا من معرفة ما هي طبيعة العلاقة بين حدى النظرية ؟ أي التحدي والاستجابة ومعرفة أيضا ما هي صور هذه العلاقة ؟

وللإجابة عن هذا السؤال نقول: ومن خلال استفهام يطرح نفسه، هل يظل التحدي إلى ما لا نهاية ؟ أي بحيث كلما أشتد التحدي عظمت الاستجابة.

وهل كل تحد يستثير استجابة ناجحة ؟ إن علاقة الاستجابة بالتحدي تتخذ إحدى صور ثلاث:

١ ـ إن قصور التحدي يجعل الطرف الآخر عاجزاً تماماً عن استجابة ناجحة.

٢ ـ أن يحطم التحدي البالغ الشدة روح الطرف الآخر.

٣ ـ أن يصل التحدي إلى درجة معقولة تستثير الطاقات المبدعة. وهذه هي وحدها الاستجابة الناجحة. ولكن ليس التحدي الأمثل هو ذلك الذي يستثير استجابة ناجحة واحدة. ولكن هذه الاستجابة الناجحة تشكل بدورها تحديًا للطرف الأول تحمله على الدخول في مرحلة صراع جديد ـ أي من حالة الين (الركود) إلى حالة اليانج

(القوة الدافعة) - (الين واليانج كلمتان من اللغة الصينية) - مرة أخرى حتى يصبح الفعل ورد الفعل ايقاعًا منتظمًا يحمل كل طرف على محاولة ترجيح كفة ميزانية لا الوقوف بها عند حاله التوازن(٤).

وبعد أن عرفنا صور العلاقة بين عنصري النظرية وهما التحدي والاستجابة أرى أن نحاول معرفة العمق التاريخي الحيوي لهذه النظرية. وسوف يتضح لنا بما لا يدع مجالاً للشك، أن البصمة التاريخية الحضارية للعقل المسلم مجسداً في عبقرية ابن خلدون النادرة وذلك باعتباره الوضع الأول لمنهج فلسفة التاريخ - كانت وراء انبجاس هذه النظرية إلى دنيا الواقع البحثي. وكان فكر ابن خلدون الوقاد هو المؤثر الأول على رؤية «توينبي» في تفسيره لحركة التاريخ. وهذه البصمة الظاهرة تتجلى لنا في أنه على الرغم من أن فكرة (توينبي) تبدو بعيدة عن نظرية ابن خلدون، إلا أنها ليست في الحقيقة سوى نظرية ابن خلدون - نظرية التعاقب الدوري للحضارات - في ثوب قشيب - وفي مصطلحات حديثة فتوينبي ربط بداية التحضر بعملية التحدي والاستجابة لهذا التحدي، ونحن نجد في مرحلة البداوة عند ابن خلدون ما يؤكد هذا أيضا، إذ أن مرحلة البداوة عند ابن خلدون تعد مرحلة الحيوية والنشاط الذي يدفع المجتمع إلى الإنتقال إلى مرحلة التحضر، كما نجد مرحلة الإنهيار عند «توينبي» شبيهة من حيث الأسباب والدوافع بمرحلة الترف عند ابن خلدون.

وإذا كان «توينبي» يرى أن انهيار الحضارات لا يشكل أزمة انفصال بين الحضارات ؛ لأن عناصر الحضارات السالفة متضمنة في الحضارات الناشئة مهما بلغ مستوى انهيارها، فإن في نظرية ابن خلدون ما يشبه هذا من حيث قيام الحضارة الحديثة على (انقاض) الحضارة السالفة(٥).

وإذا ما انتقلنا إلى دراسة وبيان الصور المتباينة للتحدي والاستجابة سواء على المستوى السلبي أو الإيجابي فإننا سوف نرى - وذلك بعد التحليل العلمي الدقيق، أن هناك مرحلتين للاستجابة السلبية هما :

١ ـ النزعة السلفية.

٢ ـ النزعة «المستقبلية»

وفيما يلي نزيد الأمر وضوحًا ونقول:

١ ـ إذا كانت الاستجابة سلبية تظهر النزعة السلفية (ZEALOTISM).

وهي اشتقاقا من فرقة يهودية تحصنت بالعقيدة اليهودية السلفية لتواجه ضغط الحضارة الهلينية على التعاليم اليهودية فأصبح اللفظ علمًا على التزمت.

٢ ـ أن تكون الاستجابة إيجابية تتمثل في نزعة مستقبلية تتشكل وتتلون بحثًا عن طريق الخلاص Herodionism نسبة إلى هيرود حاكم الجليل الروماني ٤٧ ق. م، الذي أراد أن يتزلَّف إلى يوليوس قيصر ويرضي اليهود، في نفس الوقت فأعاد إنشاء المعبد فلم يرض السلفيون اليهود ؛ لأنه أقام مسرحًا وملعبًا رومانيًا في القدس في نفس الوقت، فاللفظ إشارة إلى التلون والتشكل وسلبية هذين النمطين من الاستجابة أتت من أن السلفية المشار إليها هنا هي وثبة للخلف فوق التيار وصوب الماضي والمستقبلية المعنية هي وثبة أيضا إلى الأمام صوب المستقبل وكلاهما يأملان في قيام مجتمع أفضل من الواقع، وكلاهما يحاول الإفلات من كابوس الواقع.

وذلك باختيار عامل الزمان مع ثبات عامل المكان، والاستجابتان قاتلتان، إذ لن تؤدي السلفية أو التزمت إلا إلى التقوقع حتى ينتهي بها الأمر إلى التحجر أما المستقبلية أو التشكل فلن تؤدي إلى قيام حضارة مبدعة بل مقلدة(٦).

وإذا ما جئنا إلى الصور الإيجابية سنجد أنهما صورتان. ويمكن لنا أن نبلور هاتين الصورتين من خلال القراءة الواعية لحقيقة وأبعاد الاستجابة الناجحة، والتي تأتي أيضا عن طريق الاستقراء الجيد لحالات الأفراد المبدعين ولا سيما في مجال

الدين حيث الحياة الروحية عند توينبي هي المحك الحقيقي لرقي المجتمعات، ويلحظ أن مسار حياة هؤلاء الصفوة يمر بمرحلتين (صورتان)(٧) هما:

١ ـ مرحلة الاعتزال (الاعتكاف) عن هذا المجتمع ـ الذي ينتمون إليه وخصوصاً سلبياته حيث تتاح لهم فرصة نضج الطاقات والارتقاء الروحي ـ وهي تتسم بأنها مرحلة من الانفصال عن التيار المنحدر لمجتمع في طور الإنحلال وقد تكون هذه العزلة من اختيار المخلص نفسه وبمحض إرادته هروبا من مجتمعه ولكنها مرحلة لازمة لفترة الاستنارة الروحية.

٢ ـ مرحلة العودة: حيث يقوم المخلص بالدعوة إلى قيم عليا جديدة يناشد أفراد مجتمعه أن يتساموا من أجل ارتقاء المجتمع. ويعطي لنا توينبي الأمثلة الحية على مصداقية هذه المرحلة من واقع تاريخ الأديان ويقول: من ذلك أن صعود موسى عليه السلام إلى الجبل ميقات ربه تعد فترة من التجلي الروحي، عاد بعدها حاملاً الألواح، ومبشراً بالناموس أول تشريع سماوي على الأرض. وبوذا يقضي سبع سنوات من العزلة يفكر في آلام الناس، وينشد الخلاص ثم يعود إلى المجتمع بعد أن حقق لنفسه مرحلة الاستنارة. والسيد المسيح عليه السلام وفراره إلى مصر ثم عودته إلى القدس تستقبله الجماهير، ومحمد عليه الصلاه والسلام وتعبده في غار حراء، ليعود مبشراً بالدعوة الإسلامية الخالدة، ومرحلة الاعتزال والعودة تجدها أيضا في حياة المخلصين الذين استجابوا للتحدي بنجاح في مرحلة انهيار المجتمعات سواء من الصوفية (أبو حامد الغزالي)، أو القديسين والأولياء أو الساسة أو المفكرين والطاقة التي يفجرها المخلص بعد العودة تشمل شتى مظاهر الحضارة (٨).

ونلحظ هنا أن توينبي أثناء حديثه عن المخلصين قد ساوى بين أنبياء الله(موسى ـ عيسى ـ محمد عليهم السلام جميعا) وهم الذين يتلقون الوحي من السماء لكي يسدد خطاهم على درب الهداية، وبين واضعي الأديان الوضعية من البشر (بوذا) والفلاسفة والمتصوفة (أبو حامد الغزالي). وهذا الخلط في منظور الإسلام لا يصح، ومرجع ذلك هو أن بصمات الفكر الغربي واضحة على عقلية

توينبي ورؤيته عند دراساته لهذه النماذج ودورها في النهوض الحضاري لأممهم. وبالنسبة لحضارتنا الإسلامية فإنها قد حوت بهاتين المرحلتين (الاعتكاف ـ العودة) فلقد اعتكف في دورة الروح ـ عصر النبوة والخلفاء الراشدين. وعادت في دورة سيطرة العقل ـ العصر الأموي وما تلاه من عصور ـ ثم جاءت عصور الانحطاط بعد عصر الموحدين. حسب تقسيم مالك بن نبي لدورات الحضارة الإسلامية تاريخياً.

المحور الثاني: تطبيق النظرية حضارياً:

لقد تفرد توينبي بنظريته التي بزت غيرها من النظريات في تفسير التاريخ. وتفرد أيضا في دراساته التاريخية والحضارية عن المؤرخين السابقين الذين يعتبرون الأمم المستقلة أو الدول القومية مجالات للدراسة التاريخية، ويرى أن المجتمعات الأعظم اتساعاً في الزمان والمكان من الدول القومية أو دول المدن المستقلة أو أية جماعات سياسية أخرى هي المجالات المعقولة للدراسة التاريخية(٩).

وتتضح لنا معالم تطبيق النظرية حضارياً من خلال تلك المعالجة الواعية للمؤرخ (أرنولد توينبي) الذي يقسم تجارب الأمم إلى دول أو أمم كما فعل من سبقوه، بل أخذها مجموعات (Societies-communities) وفي كل جماعة تدخل مجموعة من الأمم تشترك في تجربة حضارية واحدة. وقد اختار توينبي من هذه التجارب إحدى وعشرين تجربة عكف على دراستها في تعمق متبعاً منهج شبنجلر في تحليل التاريخ أو فولوجيته (أي فقه التاريخ)، ولكنه حرص على ألا يفقد نفسه في عناء تتبع الحوادث وتفاصيلها، بل مضى يبحث عن أسباب قيام الجماعة التي يدرسها ويستقصي عوامل نجاحها أو فشلها(١٠). والإحدى وعشرين حضارة التي اختارها توينبي لدراسته كمجال خصب لتطبيق نظريته هي المجتمعات الحضارية الآتية: المصرية، السومرية، البابلية، الحيثية، السريانية، المينوئية، (في جزر بحر ايجه وكريت)، الهلينية، الايرانية، العربية، الهندوكية، الهندية، الصينية حضارات الشرق الأقصى (الصينية، الكورية، اليابانية)، الاندديانية، اليوقاتيقية، المايانية،

المكسيكية، الارثوذكسية المسيحية البيزنطية، الارثوذكسية المسيحية الروسية، والحضارة الغربية. ويضيف توينبي إلى هذه المجموعة مجموعات أخرى قد توقفت في مرحلة من تاريخها عن النمو الحضاري وهي البولينيزية الاسكيمية البدوية، العثمانية والاسبارطية(١١). ولقد تأمل توينبي بعد ذلك التاريخ الحضاري المعروف ودرس ما تنطوي عليه هذه المجتمعات دراسة مقارنة وقرر وجود عدد من الوحدات الاجتماعية التي تميزها خصائص معينة وتجمعها أطوار حضارية متشابهة وتصلح وحدها في رأيه للدراسة التاريخية(١٢).

ومما هو جدير بالملاحظة أن معظم هذه الكيانات الحضارية التي سادت يوماً ما في مسيرة التاريخ البشري، وتركت بصماتها على جبين الفكر الحضاري للبشرية، قد اندثرت، ولم يبق منها إلا خمسة كيانات حضارية، لا تزال باقية حتى اليوم وهذه الكيانات الباقية هي:

(١) الحضارة الغربية الأوربية المسيحية بفرعيها.

(٢) الحضارة الأوربية المسيحية الارثوذكسية (روسيا وجنوب شرق أوربا).

(٣) الحضارة الإسلامية وموطنها الشريط الصحراوي والمداري الذي يبدأ عند المحيط الأطلسي ويستمر إلى سور الصين ويشمل مناطق استوائية واسعة.

(٤) الحضارة الهندية في شبه القارة الهندية ومعظمها استوائي.

(٥) الحضارة الشرقية القصوى التي تقوم في وسط الشرق الآسيوي المعتدل وجنوب شرق آسيا الاستوائي(١٣).

وهناك ملاحظة جديرة بالانتباه يجب التوقف عندها طويلاً ونحن ندرس محاولة توينبي لتطبيق نظريته على دراسة الإبداع الحضاري للبشرية، وذلك عندما يرد إبداع الحضارات المعجز إلى الأديان لا الامبراطوريات وذلك لأن الامبراطوريات حسب وجهة نظره البناءة ليست هي مقياس الحضارة، بل على

العكس أنها تمثل بداية مرحلة إنهيار الحضارة، إذ تلجأ الأقلية المسيطرة إلى التوسع حين تفقد مقومات الإبداع، وهي لا تحمل إلا سلاماً مؤقتاً ولا تقدم حلولاً جذرية لمشكلات مجتمعاتها، على عكس ذلك الأديان، إذ وراء كل حضارة من الحضارات القائمة اليوم ديانة عالمية، فالعقائد الدينية هي التي تسير مجرى التاريخ. وإذا كان هناك مستقبل لحضارة ما من الحضارات الخمس سالفة الذكر فذلك في حدود هذه الأديان وبسبب منها(١٤) ولنا رؤية إسلامية في هذا التحليل تخالف توينبي في جعله كل الأديان في مستوى واحد من حيث قدرتها على التغيير الحضاري. ونرى من جانبنا أن هذا التصور التوينبي قاصر ولا ينطبق على الأديان السماوية التي حرفت وكذلك الأديان الوضعية وإنما القدرة الفعالة للدين على التغيير الحضاري الشامل تنطبق تمام الانطباق على الإسلام دين الله الخالد ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾ (البقرة آية ١٣٨).

ولم يقتصر تطبيق النظرية حضارياً على المجال المادي من الحضارة فقط، بل امتد إلى المجال الروحي من الحضارة أيضا ولكي ندلل على مصداقية هذه المقولة سنحاول إبراز الإشارات التي احتوت عليها دراسة توينبي وتؤكد لنا هذا الكلام.

ولقد ضرب لنا توينبي عدة أسئلة تبرز التحدي والاستجابة من واقع الكتب الدينية، وإن كان بعضها قد جانبه الصواب حسب التصور الإسلامي الصادق.

وفيما يلي تلك النماذج التي تدل دلالة واضحة على وجود عمق للنظرية في المجال الروحي، وهذا العمق يتضح لنا من خلال «أن الالتقاء بين شخصين فوق مستوى البشر هو مدار طائفة من المآسي العظمى التي تصور المخيلة البشرية. فالالتقاء بين ياهوا والحية هو حبكة قصة سقوط الإنسان في (سفر التكوين)، وكذلك الالتقاء بين الرب والشيطان هو موضوع سفر أيوب »(١٥).

ولقد قدم لنا الأستاذ الدكتور ـ حسين مؤنس ـ العمق التاريخي والتحليل المنهجي للتحدي والاستجابة في المجال الروحي من خلال ضرب الأمثلة الحية من واقع دراسات توينبي نفسه فيقول:

«إن توينبي يصور هنا التحدي تصويراً دراميًا يدل على إطلاع خارق للعادة على ثقافة البشر ومن أمثلة التحدي عنده نزول آدم إلى الأرض ومواجهته تحدي الحياة كاملاً (حسب التصور الإسلامي هذا التفسير غير مقبول وذلك ؛ لأن نزول آدم إلى الأرض كان مقدراً في علم الله سبحانه وتعالى). وهذا التحدي صورته كتب اليهود في صورة الصراع بين إلههم يهوا والحية. وصورته المسيحية في صورة لعنة الخطيئة ثم الخلاص وصوره الشاعر الألماني جيته في صورة تحدي الشيطان للخالق»^(١٦).

ويجب أن نشير إلى أن لعنة الخطيئة حسب التصور الإسلامي مرفوضة. وذلك من منطلق أن الله تاب على آدم قبل هبوطه على الأرض، ثم إن كل نفس مسؤولة عن أفعالها حسب تصور العقيدة الإسلامية ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ (المدثر: ٣٨) وكان آدم مهيئًا لذلك لحظة خُلق. وبعد هذا التحليل المنهجي لتطبيق النظرية سواء كان ماديًا أو روحيًا ولكنه على الرغم من شمولية المحاولة ماديًا وروحيًا، إلا أنها محاولة طابعها العام الثنائية التي هي سمة أساسية من سمات الفكر الغربي الوضعي الذي ينتمي إليه المؤرخ ايديولوجيًا. وهذا الفكر لا يؤمن بالوحدة والتي هي الملمح البارز للفكر الإسلامي. بل يقوم هذا الفكر الغربي في لحمته وسداه على مبدأ الثنائية والإنشطار بين الروح والمادة، الطبيعة وما وراء الطبيعة على سبيل المثال لا الحصر والقائمة طويلة من الثنائيات التي يعج بها قاموس الفكر الغربي في شقيه الليبرالي والماركسي.

وقد لاحظ هذه الملاحظة الدقيقة استاذنا الدكتور عماد الدين خليل المفكر الإسلامي الرائد من خلال قراءته الواعية للفكر الغربي الوضعي. ولقد نُشرت هذه القراءة النابضة بالرؤية الإسلامية الحقة على صفحات مجلة (المسلم المعاصر) في العدد التاسع والثلاثين في باب كلمة التحرير.

المحور الثالث: الحضارة الإسلامية:

بداية نقول إنه عبر المسيرة الطويلة لأمتنا في التاريخ، وفضلا على التحديات الحضارية فإن تاريخنا قد جابه من مستويات أخرى سياسية وعسكرية ودولية

وكان قديراً دائماً على الاستجابة لهذه التحديات وعلى تنويع أنماط هذه الاستجابة بأكبر قدر من التكيف والمرونة ؛ لكي ما يلبث أن يوقف زحف القوى المضادة في الداخل والخارج حينا وينتصر عليها حينا ويحتويها ويتمثلها أحياناً . وكانت العقيدة من وراء هذا كله وفي موازاة هذا كله هي سبب الأسباب(١٧).

ولقد سبق لي في محاولة آنفة عن (التحديات الحضارية للإسلام بين الماضي والحاضر) (نشرت على صفحات جريدة الشرق الأوسط يوم ١٩٨٩/١٢/٢٩م)، تقديم المعالجة التاريخية والرؤية الإسلامية لمعالم هذه التحديات التي واجهت حضارتنا واستجابت لها منذ الوهلة الأولى لانبثاق فجر الإسلام كدين وحضارة وبلورت أبعاد استجابة الحضارة الإسلامية لهذه التحديات بدءاً بالوثنية العربية وانتهاءً بالتحدي الصهيوني الشرس الذي يهدد كيان هذه الأمة وجوداً وحضارةً بالليل والنهار. وبناءاً على شراسة هذا التحدي وجب على المسلمين أن يفهموا ذلك، وأن يثبتوا للتحدي كأنهم صخرة صلدة، وأن يقفوا كالبنيان المرصوص دون أن ينخدعوا أو يتركوا للعدو ثغرة ينفذ منها(١٨).

مما سبق يتضح لنا أن كل هذه التحديات الصعبة والقاتلة قد واجهت حضارتنا عبر تاريخها وذلك من منطلق أن هذه الحضارة الخلاقة ما هي إلا الإفراز الشهي لهذا الدين الخالد ؛ أي الإسلام. وحتى تتسع لنا دائرة وآفاق الرؤية الإسلامية لمعرفة حجم الاستجابة للتحديات التي واجهت المسلمين في مسيرتهم التاريخية من وجودهم الحضاري سنضرب عدة أمثلة تجسد لنا قسمات هذه التحديات ومدى عمق الاستجابة لها.

وهكذا نستطيع أن نقول إنه عندما جاء الإسلام، فكان هوَ وحدة الاستجابة الناجحة التي قام بها المجتمع السورياني رداً على تحدي الهلينية، ولقد أمكنه طرد الهلينية من العالم السرياني ثم زوّد هذا المجتمع بديانة ناشئة من صلبه، فأمكنه بعد خمود الحيوية في الحضارة السريانية أن يطرد شبح الفناء، الذي أرقها فاستعادت ثقتها بأنها لن تكون حضارة عقيمة، بل أصبح الإسلام هو الشرنقة

التي خرج منها فيما بعد المجتمعان الجديدان العربي والفارسي سليلا الحضارة السريانية(١٩).

وفي رأي توينبي أن انتصار الإسلام الحضاري في فتوحاته كان عبارة عن رد فعل للتحديات التي كانت ماثلة قبل مجئ الإسلام في الساحة الدولية. وفي هذا يقول:

«لقد تمثلت استجابة سكان الشرق الأوسط لهذا التحدي الوافد من الخارج باعتناق الإسلام، واندفع المسلمون بقيادة العرب لاسترداد مجدهم الذاوي وترتب على انتصار الإسلام استرداد الشرق الأوسط شخصيته التي أهدرها العدوان الثقافي الهيليني، أجيالاً طويلة، فأصبحت المدن الإسلامية مركز الحضارة الإسلامية الزاهرة»(٢٠).

ولقد شكلت الحضارة الإسلامية الباذخة بدورها تحدِّيًا للحضارة المسيحية الأوربية في امتدادها إلى أسبانيا من جهة ثم أجزاء من شرق أوربا على أيدي العثمانيين من جهة أخرى، لذلك حدثت تحديات عنيفة خلال العصور الوسطى من الحضارة الغربية (الأوربية) لحضارة الإسلام ممثلة في الحروب الصليبية ـ سبق لي معالجة قضية هذه الحروب، وذلك باعتبارها حلقة من حلقات الصراع الحضاري بين الشرق والغرب في محاولتي المشار إليها سابقًا عن التحديات الحضارية للإسلام ـ ولكن لاشك أن أعمقها وأخطرها وأبعدها أثراً على شعوب العالم الإسلامي فحسب هي الحضارة الأوربية الحديثة التي غيرت تغييراً شاملاً حياة الناس وأفكارهم ومشاعرهم بل وحياتهم الاجتماعية من نظام الزوجة الواحدة إلى تحرير المرأة ولاشك أن المؤرخ الأوربي المعاصر وربما المؤرخ الذي يعيش عام (٢٠٤٧م) ـ كتب هذا الكلام عام ١٩٤٧م ـ فالمقصود بعد قرن من كتابة هذا الكلام ـ سيذكر التحدي الأوربي لحضارات الشرق كلها على أنها أهم ظاهرة في العصر الحديث. ولكن ماذا كان رد فعل أو استجابة الإسلام ـ الحضارة الإسلامية ـ للتحدي الغربي؟(٢١).

والإجابة عن هذا التساؤل المثار على بساط البحث تتمثل في أن رد الفعل أو

استجابة تلك المجتمعات ـ أي الإسلامية ـ للتحدي الغربي قد ظهرت وتجسدت في المظهرين والمرحلتين اللتين سبق ذكرهما كصورة سلبية للاستجابة للتحديات، وهاتان المرحلتان قد مرت بهما استجابة الحضارة الإسلامية الراهنة لتحديات الحضارة الأوربية الحديثة وهما:

١ ـ مرحلة الالتزام أو السلفية، إذ بمجرد أن واجهت بعض الدول الإسلامية تحدى الحضارة الغربية بتفوقها العسكري والتكنولوجي، والاقتصادي تقوقعت على نفسها متخذة من الدين درعاً لها ضد العدوان الخارجي وقد تمثل ذلك في الحركات الوهابية في نجد والحجاز والسنوسية في ليبيا والمهدية في السودان والأسرة الحميدية في اليمن.

ويلحظ على معالجة توينبي لهذه القضية، أي قضية السلفية والإبداع الحضاري إغفال عاملين أولهما هو:

إغفال الروح والرؤية الإسلامية في المعالجة، وهذا راجع إلى تكوينه الفكري المشبع بالطابع الغربي والذي سبق الإشارة إليه.

ونظراً لضيق المجال المتاح للبحث ـ سوف أناقش فكرياً ودينياً وحضارياً عدم مصداقية توينبي في تحليله السابق، وهناك عامل آخر، وهو أن موضوع السلفية يتصل بالفلسفة أكثر منه بالحضارة ولهذا رأيت أن أحيل القارئ الكريم إلى تلك الدراسات القيمة التي عالجت هذه القضية الحيوية معالجة دقيقة حسب مقتضيات المنظور الإسلامي لمثل هذه القضايا المصيرية(٢٢).

٢ ـ مرحلة التشكل: حيث يجد المتشكل أن أفضل وسيلة لحماية نفسه من الخطر أن يتعرف على سر تفوق عدوه، فيطرح جانباً وسائل الحرب، وتراثه الماضي ويقتبس مظاهر الحضارة المتحدية له، ويحاول التشكل بها ـ محمد علي وخلفاؤه في مصر ـ كمال أتاتورك في تركيا، وقد عانت حركة المتشكلين أياماً عصيبة وذلك إثر محاولة خلفاء محمد علي أن يجعلوا مصر قطعة من أوربا ـ أدت إلى الاحتلال البريطاني لمصر، وأما بالنسبة لتركيا فإن التركي المعاصر أصبح يعاني قلقاً يرجع إلى أنه غير حياته تغييراً شاملاً وقطع صلته بماضيه وكتابة التركية

بحروف لاتينية، جعلت الشباب التركي عاجزاً عن الاتصال بتراثه القديم سواء في التركية القديمة أو الفارسية أو العربية وكذلك الحال بالنسبة إلى التشريع الذي أخذوه عن سويسرا كما هو الحال في مصر بالنسبة لدستور «١٩٢٣م»(٢٣).

ولكن يلحظ أن تركيا تسير الآن وبخطى لاهثة على طريق العودة إلى أحضان أمتها الإسلامية. وأيضا هناك تيار الصحوة أو الإحياء الإسلامي الذي يعمل جاهداً على رأب الصدع الذي انتاب مجالات الحياة الإسلامية في شتى الأقطار الإسلامية المختلفة لكي تعود هذه الأقطار إلى منابعها الصافية وذلك من منطلق «أنه لا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» كما ورد في الحديث النبوي الشريف، على صاحبه أفضل صلاة وأزكى سلام. وهذا الإعجاز المتفرد الكامن في الحديث النبوي لا يدركه توينبي وإنما يدركه أبناء الإسلام الخالد. ويعتبر التحدي الإسرائيلي ـ الصهيوني ـ كما سبق الإشارة من أخطر التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في عصرها الراهن، وهذا لأن اغتصابهم لفلسطين وتجمعهم فيها ناتج عن تحدي التشتت الذي لاقوه لا بالرغم من التشتت كما يزعمون. ومعنى ذلك أن اجتماعهم في اسرائيل اليوم يقضي على هذا التحدي الذي واجههم من قبل ومن جهة أخرى فإن بقاءهم في فلسطين يمثل دائما للعرب والمسلمين تحديا يستثير ارادة الاستجابة فيهم وسيترتب على ذلك تشتتهم مرة أخرى وخروجهم من فلسطين(٢٤).

وبعد أن قدمنا بعض اللقطات الخاطفة عن التحديات الحضارية التي واجهت أمتنا عبر مسيرتها التاريخية، وبينا مدى استجابتها لهذه التحديات أرى لزاماً علينا، واستكمالاً لهيكل وأبعاد القضية موضوع البحث أن نقدم خطاً عاماً لعناصر هذا التحدي الحضاري الذي يواجه أمتنا الإسلامية في عصرها الراهن ومستقبلها المرتقب إن شاء الله، وأبرز معالم عناصر التحدي الحضاري الذي يواجه أمتنا الإسلامية في عالم اليوم والغد هي:

١ ـ القدرة على شحذ الفعالية الروحية للأمة.

٢ ـ القدرة على استيعاب حضارة العصر استيعاباً كاملاً.

٣ ـ القدرة على تبني أساليب الحضارة المعاصرة أو إبداع البدائل.

٤ ـ القدرة على حماية المنجزات الحضارية للأمة(٢٥).

ولقد قدم الأستاذ الدكتور / مهندس محمود محمد سفر تحليلاً علميًا ذا نغمة هندسية لهذه العناصر التي تشكل الملامح العامة للتحدي الحضاري الذي يواجه أمتنا في كتابه الأخير الذي صدر له عن رئاسة المحاكم الشرعية في دولة قطر «ضمن سلسلة كتاب الأمة رقم (٢١) وكان يحمل عنوان ـ دراسة في البناء الحضاري.

ولقد أدلى الدكتور ـ توفيق يوسف الواعي ـ بدلوه في هذا المجال الحيوي من خلال أعطائه لنا تصوراً آخر لعناصر هذا التحدي القيم الحضاري الذي يواجه أمتنا الإسلامية في حقبتها الراهنة وذلك ضمن كتابه القيم «الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية»

وهذه العناصر البارزة لجوانب التحدي الحضاري حسب رؤيته تتجسد في الآتي:

١ ـ عقيدة.

٢ ـ رصيد إنساني واجتماعي.

٣ ـ قيم ومثل ومبادئ(٢٦).

ويلحظ على هذا التقسيم الأخير أنه يميل إلى تكثيف الجانب العقدي كعنصر بارز في معركة التحدي من أجل البقاء والتي هي بطبيعة الحال معركة حضارية. وذلك بعكس التقسيم الأول الذي يبلور قسمات هذا التحدي في ابعادها الحضارية سواء كانت معنوية «روحية» أو مادية بحتة، وأيضا يحتوي على ملامح التكوين التاريخي للأمة الإسلامية في شقيه القديم والحديث.

وفي الواقع أن عناصر التحدي الحضاري المعاصر ـ الذي يواجه أمتنا العربية الإسلامية ـ شاملة شمول الحضارة الإسلامية الخالدة.

ونأتي الآن إلى دراسة متى بدأ التراجع الحضاري يعرف طريقه إلى حياة أمتنا ؟

ولكي تكتمل أبعاد هذه القضية، أي قضية التراجع الحضاري، نتناول أيضا هل كان للتحدي الحضاري الذي واجه أمتنا في واقعها التاريخي صلة بتراجعها الحضاري أم لا ؟ وللإجابة عن هذين السؤالين السابقين إجابة حاسمة لابد لنا من استقراء التاريخ الحي لهذه الأمة، وهذا من منطلق أن التاريخ هو ذاكرة الأمم الواعية وهو أيضا خير شاهد على مصداقية هذه المقولة. ولقد بدأ التراجع الحضاري يظهر في تاريخ أمتنا الإسلامية لبعض جماعات العرب التي غُلبت في الصراع السياسي خلال العصر العباسي، واضطرت بعض جماعاتهم إلى العودة إلى الجزيرة - ولقد أفاض ابن خلدون في شرح هذا الموقف.

وهذا الموقف حسب رؤية الأستاذ الدكتور - حسين مؤنس - في حاجة إلى مناقشة واسعة، وذلك لأننا لا ندري إن كان أولئك الذين ارتدوا إلى الوراء هم أولاد أولئك الذين قادوا، الحضارة أم جماعات منهم لم تساهم في العمل الحضاري قط، بل شاركت في العمل العسكري، وظلت دائما على حالها من الفطرة، فلما ضاعت الرئاسة من رؤسائهم، والمتحضرين منهم ارتدوا إلى البادية حيث عاشوا حياتهم الأولى.

ولدينا أمثلة أخرى لهذه الظاهرة كما نرى في أمة الطوارق، وهم أوغل أهل المغرب في البداوة في أيامنا، وهم مع ذلك من بقايا المرابطين أصحاب الدولة المرابطية الإسلامية العظيمة(٢٧).

ويحاول الدكتور - عبد السلام نورالدين - أن ينقب لنا عن البعد التاريخي لتوقف مسيرة أمتنا عن الإبداع الحضاري المعجز عبر تاريخها، وذلك من خلال قوله بهذا الصدد: «لقد وقفت الحضارة الإسلامية في القرن (الرابع الهجري) - (القرن العاشر الميلادي) في مفترق الطريق المنحني تحمل في جانب كل قدرات النهوض والإقلاع الحضاري، وقد كان المجرى معداً إذ فتح العصر العباسي الأول كل أبواب الأمل.. أمل التغلب على التحديات ولما كان الإقلاع الحضاري ممكنا فقد كان أمل الفرد العربي (المسلم) في النهوض طبيعياً وشرعياً إلا أن الضرورة

التي تكشفت في صورة المصادقة فقد كانت بدلاً من أن تقلع الحضارة العربية الإسلامية فقد سقطت في مجراها »(٢٨).

ويقدم لنا الدكتور نورالدين أمثلة متعددة تدل على سقوط الحضارة الإسلامية، وتراجعها الحضاري تاريخياً، نحن بدورنا لا نوافقه على بعضها، وخصوصا عند تحليله لوضعية هذه الأمثلة ومكانتها في حياة أمتنا. ونرى أنه لا داعي لإضاعة الوقت في مناقشة خطأ هذا التصور الذي يقلب الموازين والمعايير في سبيل إقرار آراء متهافتة، وإعطاء بعض عوامل الهدم حجماً لا تستحقه.

ومرجع هذا هو أن العقل المسلم الراشد قد تجاوز هذه الترهات والسقطات الفكرية سواء أكانت عامة أم أكاديمية، وأخذت من وقته الكثير مثل قضية القرامطة، ودورهم الهدام في مسيرتنا الحضارية.

ولقد أصاب الدكتور في تحليله لانحراف مسار العقل المسلم الواعي عندما استسلم لشطحات الصوفية، ولقد ناقش ايجابية التصوف وسلبيته الأستاذ الدكتور أحمد محمود صبحي في كتابه «التصوف سلبياته وإيجابياته» (صدر ضمن سلسلة كتابك عن دار المعارف المصرية) وفي هذا الكتاب الفذ قدم الدكتور صبحي رؤيته المفعمة بالأصالة الإسلامية لما ينبغي أن يكون عليه التصرف الفعال.

ولقد انتكست الحضارة الإسلامية وتراجعت أمام الحضارة الغربية عند هزيمة العالم الإسلامي الحديث في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. وذلك عندما انهزم المماليك أمام قوات فرنسا ١٧٩٨م، والعثمانيون أمام الروس ١٧٧٤م بفعل أداة الحرب الغربية الحديثة(٢٩).

وبعد معرفة مؤشرات التراجع الحضاري في تاريخ حضارتنا الإسلامية نتطرق إلى دراسة بعض ملامح مستقبلها المرتجي لها من واقع التحديات التي ستواجهها في المستقبل القريب وعلى ضوء المتغيرات الحضارية التي تجتاح العالم اليوم، وعالم الغد القريب، يستطيع أن نقول إن الحضارة التي ستسود في هذا العالم هي الحضارة الإسلامية. وهذا من منطلق أنه كما يحتاج الإنسان إلى فطرته، وإلى استقراره

وسعادته يحتاج إلى الحضارة الإسلامية، فليست حاجة الإنسان إليها مجرد رغبة تنقضي أو تبقى - إنما هي طبيعة وضرورة ملحة واسقرار وحتمية لابد أن يصل إليها إن عاجلاً أو آجلاً بسبب بسيط وهي أنها أي الحضارة الإسلامية من خالقه ومنظم الحياة ومدبر الأمر كله(٣٠).

ولكن ما هو مصير الحضارة الإسلامية في نظر توينبي صاحب نظرية «التحدي والاستجابة » ؟ وهل يرى توينبي أن الحضارة الإسلامية ستنقرض كما انقرضت حضارات أخرى ؟ هل يرى أنها ستتحجر كبعض الحضارات المتحجرة القائمة في عالمنا اليوم ؟ أم هل سيجرفها تيار الحضارة الغربية ويتمثلها ؟ والإجابة عن كل هذه الأسئلة المطروحة عند توينبي هي أنه لا شيء من ذلك كله سيحدث وإنما ستبقى حضارة حية. إن الحضارة الإسلامية قد تنافس الحضارة الهندوكية أو بوذية الماهايانا من أجل السيطرة في المستقبل بوسائل تتعدى تصوراتنا ولكن ماذا يكمن في الحضارة الإسلامية من طاقات غير قائمة في الحضارة الأوربية الحديثة، هل نتوقع لها أن تكون هي حضارة المستقبل؟ يرد توينبي إن الحضارة الأوربية تحمل في طياتها التناقض بين الفكر والعمل، بين إنكار المساواة والإخاء والحرية التي ورثتها عن الثورة الفرنسية وبين التفرقة العنصرية التي تمارسها الآن بالفعل. والتي تشكل خطرا عليها بزيادة وعي الشعوب الملونة. هذا بينما طابع الحضارة الإسلامية الاتساق بين الفكر والعمل بصدد المساواة إذ تمكن في أزهى عصورها أن يصل إلى مراكز السلطة فيها الرقيق والعبيد (المماليك وكافور الأخشيدي). الأمر الثاني هو تحريم الخمر وقد لا يدرك الكثيرون قيمة هذا التحريم بالنسبة للحضارة. ولكن من يشاهد عن قريب سكان المناطق الاستوائية يدرك أن توقف نشاطهم راجع إلى شرب الخمر إلى حد كبير. ولقد فشل الإداريون الأوربيون في علاج هذه المشكلة التي لا تحلها القوانين المفروضة؛ لأن الامتناع عن الخمر لا يتم إلا بوازع ديني(٣١).

وهكذا يتضح لنا بما لا يدع مجالاً للشك، أن تاريخ الإسلام هو تاريخ صراع متنوع طويل المدى عميق النفس بين شعوب الإسلام وخصومهم.

إنه ما من أمة من أمم العالم تعرضت لهذا القدر من الهجمات العنيفة المتلاحقة التي كانت تضرب الشاطئ الإسلامي كالبحر العاتي.. موجة إثر موجة... دون أن تترك للمسلمين الفترة الزمنية الكافية لكي يلموا أشتاتهم ويلتقطوا أنفاسهم ويستجمعوا قواهم: الوثنية العربية ـ الفرس ـ البيزنطيين ـ الصليبيين ـ المغول ـ الأسبان ـ قوى الاستعمار القديم ثم الحديث ـ الصهاينة ـ وقد سبق الإشارة إلى هذه التحديات فيما سبق من البحث، وأيضا في محاولتي المتواضعة عن التحديات الحضارية للإسلام... وأخيراً قوى الوفاق الدولي الذي يسعى لكي يطبق على عالم الإسلام الراهن بكماشته العاتية(٢٢).

ولكن إزاء هذه التحديات ماذا كان رد فعل العالم الإسلامي عليها؟ لقد كان عالم الإسلام عبر مساحات واسعة من هذه التحديات يملك القدرة على المجابهة، ويخرج من المعارك الطاحنة صامداً أو منتصراً يوقف الغزاة أو يهزمهم ويردهم على أعقابهم أو يحتويهم ويتمثلهم. صحيح أن هذه المعارك طويلة المدى قد استنزفت الكثير من طاقات المسلمين المتجددة واقتصت جانباً كبيراً من قدرتهم على الفعل والإنجاز الحضاريين. الأمر الذي قد يفسر لنا جانباً من أسباب التعثر الذي شهده عالم الإسلام في قرونه الأخيرة، إلا أن الأمة الإسلامية لم تفقد عبر هذا الصراع الطويل وإلى فترة قريبة نسبياً أيما شيء لا الأرض ولا العقيدة ولا القدرة على الامتداد(٢٣).

وعلى الرغم من هذا فإن أمتنا الإسلامية دائماً قادرة على البعث والتجديد طالما اعتمدت على ذاتها، واستنفرت إمكاناتها الذاتية الخلاقة، وذلك طبقاً للقانون الإلهي للتغيير والذي يقول: **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾** (الرعد: ١١).

المحور الأخير:

وأخيراً وليس آخراً نأتي إلى الرتوش الأخيرة لهذا البحث المتواضع، والذي قدمنا من خلاله تلك المعالجة الواعية لهذه النظرية الموضوعية في تفسير التاريخ تفسيراً حضارياً.

وموضوعية هذه النظرية ـ التحدي والاستجابة Challenge, Response تأتي من كونها نظرية إقليمية تفجر عنها ذهن فيلسوف تاريخ غربي. وعلى الرغم من كونه غربيًا إلا أنه أنكر أن يكون الغرب هو مركز الثقل الحضاري في العالم قديمًا وحديثًا، ونبه العقل الأوروبي الغافل والسادر في غيه ـ والذي كان يعتبر أن الجنس الآري والنورمندي هما المبدعان للحضارة فقط، وغيرهما من الأجناس البشرية الأخرى كم مهمل ـ إلى أن هناك كيانات حضارية شتى ابدعتها أجناس متنوعة أسهمت ولايزال بعضها يسهم في تغذية مسيرة الإبداع الإنساني الوثابة دوما نحو الارتقاء الحضاري.

ولقد درسنا في بحثنا هذا ماهية النظرية، وتبين لنا أنها نظرية حيوية تبلور لنا معالم التفسير الحضاري لحركة التاريخ الناشطة نحو تحقيق طابع من التكاملية في حياة الإنسان صانع هذه الحركة. وهذا التفسير يحتل الآن وضعية لا بأس بها على ساحة البحث العلمي التاريخي. بل إن الاهتمام به يزداد كل يوم عن اليوم الذي يسبقه. ثم عرجت الدراسة على مجالات تطبيق النظرية وفق مقتضيات المنظور الحضاري الشامل. ورأينا أن التطبيق قد شمل فيما شمل الدراسة المسحية للهيكل البانورامي لتاريخ البشرية قاطبة منذ اللحظات الأولى لتشكيل هذا التاريخ وانجازاته الحضارية في ضمير الوجود وانتهاء بالحضارات المعاصرة سواء منها الحضارات التي تعيش في حقبة التألق الحضاري ـ حضارة الشعوب الصفراء ـ أم تلك التي تحيا في مرحلة الاحتضار ـ الحضارة الغربية ـ أو تلك التي تمتلك مقدمات البعث والانبعاث الحضاري ـ الحضارة الإسلامية ـ أو تلك الحضارات المتحجرة ـ الحضارة اليهودية المزعومة ـ وفي هذا دلالة أكيدة على شمولية الفكر التاريخي لدى توينبي الذي أنكر بشدة كما سبق القول ـ أن يكون الغرب هو حجر الزاوية ومركز الدائرة الإنسانية حضاريًا.

وعندما جئنا إلى محور موقف النظرية من الإنجاز الحضاري الإسلامي اتضح لنا تلكم المكانة السامية التي احتلتها حضارتنا في دراسة توينبي، مما حدا بالاستاذ فؤاد محمد شبل مترجم معظم دراسات توينبي التاريخية إلى العربية ـ أن يؤلف

كتاباً عن حضارة الإسلام في منهاج توينبي التاريخي. وفي هذا إشارة بارعة إلى أن توينبي تناول أبعاد الوجود الإسلامي حضارياً منذ تكوينه في رحم التاريخ - كما سبق القول - وحتى الحقبة المعاصرة وعالجه معالجة دقيقة مفعمة بالعمق والأصالة الفكرية التي تمتع بها أرنولد توينبي، بعكس غيره من المؤرخين.

ولقد قدمت نماذج حية من واقع وجود أمتنا تدل على التحديات التي قدر لها أن تواجهها وقدمت أيضا صوراً حية لتلك الاستجابات الإسلامية للتحديات سواء أكانت سلبية أم إيجابية، ثم درست محطات التراجع الحضاري في تاريخ أمتنا الحضاري، ورصدت أسباب هذا التراجع وقدمت تصوراً لإمكانية الخروج من هذا المأزق الحضاري، وقدمت أيضا تصوراً لملامح الانعتاق الحضاري الذي نريده لأمتنا. ثم عرجت في ختام هذا المحور الحيوي من البحث إلى دراسة مستقبل حضارتنا الإسلامية الماجدة من منطلق ذاتيتها الحضارية، ثم درست معالم مستقبلها المرتقب لها على ضوء نظرية توينبي «التحدي والاستجابة».

ولقد قدمت شهادة هذا المؤرخ العملاق في هذا المجال، وذلك لأنها صادقة صدق التاريخ. وقبل أن أضع اليراع أقول إن دراسة ابداعنا الحضاري الإسلامي - في واقعه التاريخي وفي الحقبة المعاصرة أيضا - على ضوء تلك النظرية الفذة لهو درس جدير بأن يكرس له أحد مراكز الأبحاث والدراسات الحضارية والتاريخية. أو إحدى المؤسسات الأكاديمية مثل «كليات الآداب» في عالمنا الإسلامي الواسع فريق عمل متكامل، وذلك حتى يتسنى له دراسة هذه القضية الحيوية دراسة واعية شاملة، وذلك من منطلق أن هذا العمل الأكاديمي سيتيح لهذاالفريق عدداً من المصادر والمراجع والوثائق والأدلة التاريخية ما يساعدنا كمسلمين على بلورة قسمات هذا الموضوع الحيوي.

وبناء على هذا سيكون في إمكانية أمتنا أيضا فهم ديناميكية وديمومة حركة التطور الحضاري اللاهثة دوما نحو الإنطلاق.

وأخيراً حسبي أنني قدمت رؤيتي المتواضعة في دراستي هذه. ولقد تكونت لي هذه الرؤية المتواضعة نتيجة المعايشة الحية والصادقة لعدد لابأس به من المراجع

العلمية والأكاديمية التي تناولت هذه القضية الحساسة بالدرس والتحليل وفق مقتضيات المنهج التحليلي وآخر دعوانا «أن الحمد لله رب العالمين» والله من وراء القصد.

الهوامش

(١) د. أحمد محمود صبحي ـ في فلسفة التاريخ ـ مؤسسة الثقافة الجامعية ـ الاسكندرية ١٩٧٥ ـ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(٢) د. عاصم الدسوقي ـ البحث في التاريخ «قضايا المنهج والإشكالات» ـ مكتبة القدس ـ القاهرة ١٩٨٦م ـ ١٣٨.

(٣) أ. شايف عكاشه ـ الصراع الحضاري في العالم الإسلامي «دراسة فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي» ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م ـ ص ٩٣.

(٤) أحمد محمود صبحي ـ المرجع السابق ـ ص ٢٦٩ ـ ص ٢٧٠.

(٥) أ. شايف عكاشه ـ المرجع السابق ـ ص ٩٣ ـ ٩٤.

(٦) د. عاصم الدسوقي ـ المرجع السابق ص ١٣٩.

(٧) د. أحمد محمود صبحي ـ المرجع السابق ـ ص ٢٨٢.

(٨) د. عاصم الدسوقي ـ المرجع السابق ـ ص ١٤٠.

(٩) د. عماد الدين خليل ـ التفسير الإسلامي للتاريخ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٩٨١م ـ ص ٧٠.

(١٠) د. حسين مؤنس. أرنولد توينبي ونظرية التحدي والاستجابة ـ مجلة العربي ـ العدد «١٨٢» وزارة الاعلام ـ الكويت ـ ذو الحجة ١٣٩٣هـ ـ يناير «كانون الثاني» ١٩٧٤م ـ ١٠٢ ـ ١٠٣.

(١١) د. عماد الدين خليل ـ المرجع السابق ص ٧١.

(١٢) د. عماد الدين خليل ـ المرجع السابق ـ ص ٧٠.

(١٣) د. حسين مؤنس ـ الحضارة ـ عالم المعرفة رقم ١ ـ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت ـ المحرم / صفر ١٣٩٨هـ «يناير» «كانون الثاني» ـ ١٩٧٨م ـ ص ٢١٥ ـ ص ١٦

(١٤) د. أحمد محمود صبحي ـ المرجع السابق ـ ص ٢٦٦ ـ ص٢٦٧.

(١٥) أ. فؤاد محمد شبل ـ التحدي والاستجابة في دراسة توينبي ـ مجلة الفكر المعاصر العدد الأول ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ القاهرة ـ مارس ١٩٦٥م ـ ص٣٨.

(١٦) د. حسين مؤنس ـ مجلة العربي ـ المرجع السابق ـ ص ١٠٤.

(١٧) د. عماد الدين خليل ـ من رصيد رحلة الأربعة عشر قرنا ـ مجلة الفيصل ـ العدد ٤٢ ـ دار الفيصل الثقافية ـ الرياض ـ ذو الحجة ١٤٠٠هـ ـ تشرين الأول «أكتوبر» تشرين الثاني «نوفمبر» ١٩٨٠م ـ ص ٥٧.

(١٨) د. حسين مؤنس ـ مجلة العربي ـ الدراسة السابقة ـ ص ١٥.

(١٩) د. أحمد محمود صبحي ـ المرجع السابق ـ ص ٢٨٥.

(٢٠) د . عفت الشرقاوي ـ في فلسفة الحضارة الإسلامية ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٨١م ـ ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ .

(٢١) د . أحمد محمود صبحي ـ المرجع السابق ـ ص ٢٨٥ ـ ص٢٨٦ .

(٢٢) ومن هذه الدراسات على سبيل المثال لا الحصر ؛

أ ـ دراسة الأستاذ الدكتور / مصطفى حلمي أستاذ الفلسفة الإسلامية ـ كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة ـ في كتابه ـ مفهوم السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية ـ وفيه تحليل شامل لتهافت تصور توينبي عن السلفية وبيان أهمية السلفية الإسلامية في مضمار البعث الحضاري الإسلامي والدكتور مصطفى حلمي حاصل على جائزة الملك فيصل العالمية في الدراسات الإسلامية وهو من الدعاة البارزين للسلفية الإسلامية في وقتنا الحالي .

ب ـ دراسة الأستاذ الدكتور / عبد الحليم عويس والتي كانت تحت عنوان ـ التحدي الحضاري الداخلي . ولقد نشرت هذه الدراسة الجيدة على صفحات جريدة العرب الدولية ـ الشرق الأوسط ـ في عدد يوم الجمعة ١٩٨٩/٦/٢م والاثنين ١٩٨٩/٦/٥م .

ج ـ دراسة الأستاذ الدكتور / محمد عمارة عن هذه الحركات الإسلامية الحديثة وهو يعتبرها البداية التاريخية لتيار الصحوة الإسلامية وذلك في كتابه ـ الصحوة الإسلاية والتحدي الحضاري ـ من ص ١٣ ـ ص ٢٢ .

(٢٣) د . عاصم الدسوقي ـ المرجع السابق ـ ص ١٣٢ ـ ص ١٤٣ .

(٢٤) د . عفت الشرقاوي ـ المرجع السابق ـ ص ٢١٦ ـ ص ٢١٧ .

(٢٥) د . محمود محمد سفر ـ الحضارة تحد ! الكتاب العربي السعودي « ٢٤ » ـ تهامة جدة ـ ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ص ١٩ .

(٢٦) د . توفيق يوسف الواعي ـ الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ـ دار الوفاء ـ المنصورة ـ ١٤٠٨هـ ـ ص ٨٥٣ ـ ٥٩٥ .

(٢٧) د . حسين مؤنس ـ الحضارة ـ المرجع السابق ـ ص ٢٦٦ ـ ص٢٦٧ .

(٢٨) د . عبدالسلام نورالدين ـ العقل والحضارة ـ دار التنوير . بيروت . ١٩٨٧ ص ٢٦ .

(٢٩) أ . فؤاد محمد شبل ـ حضارة الإسلام في دراسة توينبي للتاريخ ـ المكتبة الثقافية رقم ٢١١ ـ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٨م ص ٦٧ ـ ٦٨ .

(٣٠) د . توفيق يوسف الواعي ـ المرجع السابق ـ ص ٦٣٧ .

(٣١) د . أحمد محمود صبحي ـ المرجع السابق ـ ص ٢٨٩ ـ ص ٢٩٠ .

(٣٢) د . عماد الدين خليل ـ الفيصل ـ الدراسة السابقة ـ ص ٥٧ .

(٣٣) د . عماد الدين خليل ـ المرجع السابق ـ نفس الصفحة .

المراجع

أولا: المراجع:

(١) خليل، عماد الدين خليل (الدكتور) - التفسير الإسلامي للتاريخ - دار العلم للملايين بيروت ١٩٨١م.

(٢) الدسوقي، عاصم (الدكتور) - البحث في التاريخ «قضايا المنهج والاشكالات» مكتبة القدس - القاهرة - ١٩٨١م.

(٣) سفر، محمود محمد سفر (الدكتور) - الحضارة تحد - الكتاب العربي السعودي - رقم ٢٤ - تهامة - جدة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

(٤) شبل، فؤاد محمد شبل (الأستاذ) - حضارة الإسلام في دراسة توينبي للتاريخ - المكتبة الثقافية رقم ٢١١ - دار الكتب العربي للطباعة والنشر - القاهرة - ١٩٦٨م.

(٥) الشرقاوي، عفت الشرقاوي (الدكتور) - فلسفة الحضارة الإسلامية - دار النهضة العربية بيروت - ١٩٨١م.

(٦) صبحي، أحمد محمود صبحي (الدكتور) - في فلسفة التاريخ - مؤسسة الثقافة الجامعية - الاسكندرية - ١٩٧٥م.

(٧) عكاشة، شايف عكاشة (الأستاذ) - الصراع الحضاري في العالم الإسلامي «دراسة تحليلية في فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي - دار الفكر - دمشق - ١٤٠٦هـ١٩٨٦م.

(٨) مؤنس، حسين مؤنس (الدكتور) - الحضارة - عالم المعرفة رقم ١ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، المحرم/صفر ١٣٩٨هـ/ يناير «كانون الأول» ١٩٨٧م.

(٩) نورالدين، عبد السلام نورالدين (الدكتور) - العقل والحضارة - دار التنوير - بيروت ١٩٨١م.

(١٠) الواعي، توفيق يوسف الواعي (الدكتور) - الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية دار الوفاء - المنصورة - ١٤٠٨ه- ١٩٨٨م.

ثانيًا: الدوريات

(١) خليل، عماد الدين خليل (الدكتور) - من رصيد رحلة الأربعة عشر قرناً - مجلة الفيصل العدد ٤٢ - دار الفيصل الثقافية - الرياض - ذو الحجة ١٤٠٠هـ/تشرين الأول «أكتوبر» تشرين الثاني «نوفمبر» ١٩٨٠م.

(٢) شبل، فؤاد محمد شبل (الأستاذ) - التحدي والاستجابة في دراسة توينبي - مجلة الفكر المعاصر - العدد الأول - الدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة - مارس ١٩٦٥م.

(٣) مؤنس، حسين مؤنس (الدكتور) - أرنولد توينبي ونظرية التحدي والاستجابة - مجلة العربي العدد ١٨٢ - وزارة الاعلام - الكويت - ذو الحجة ١٣٩٣هـ/ يناير «كانون الثاني» ١٩٧٤م.